شـــــعوب القوقاز

الأستاذ برهان الدين الداغستاني

(مهداة إلى الأستاذ محمد أسامه عليه تعقيباً على ما نشره في العدد ٧٨٤ ص ٧٩٧ من الرسالة الغراء)

سيدى الأستاذ : قرأت — وأنا على أهبة الســـفر إلى الإسكندرية في طريق إلى دمشق ، ما كتبتموه تحت عنوان : « نصوص تاريخية في الرد على تعقيب » فلم يكن في الوقت متسع ، ولا في البال فراغ ، فلم أستطع الكتابة يومئذ ، ثم تلاحقت الشاغل ، وتواردت الموانع ، واتصلت حتى استطعت أخيراً أن أختلس بعض الفراغ لأبعث إليكم بهذه اللاحظات التي أرجو أن تلاقى لديكم بعض العناية والرعاية والصدر الرحب .

إنكم نقلتم عن تاريخ الجراكسة للأستاذ محمد بك فكرى ما نقله عن المؤرخ الفرنسي « س لامار » من أن الكرج ، والجركس ، واللزكى والحجبي فروع أصل واحد ، ثم نقلتم عنه أيضاً قولة : دلت التدقيقات العلمية والتاريخية على أن الجركس والكرج ينتميان إلى (جد) مشترك .

وأحب أن أوجه نظركم الكريم إلى أن موضع النزاع بيني وبينكم — إن كان هناك نزاع — هو أن يكون الكرج ، والجركس ، واللزكى ، والحجب شعباً واحداً ، لا أن يكونوا (فروع) أصل واحد ، أو منتمين إلى (جد) مشترك ! كيف ونحن — معشر المؤمنين بوحي السماء — ما زلنا نعتقد أن الشعوب كلها تنتمي إلى جد مشترك ؟ أما من هو هـذا الجد المشترك ، أو الأصل الذى تفرعت عنه هذه الفروع وفى أى عصر كان ؟ فهذا ما لا أحب أن أعلق عليه أو ألقى إليه بالاً ! . ويبدو لى أنك شعرت بينك وبين نفسك أن ما نقلته عن « س لامار » لا يجدى عليك في دعواك فتيلا ، ولا يغنى عنك شيئاً ، فنقلت ما جاء في كتاب الجراكسة لمحمد بك فكرى (حـ ١ ص ٦): « أن لفظ الجركس عنوان عام يشمل القبائل الأصلية القوقازية ، فيكون الجركس يؤدى مؤدى القوقاس » فمن أين للأستاذ محمد بك فكرى هذا ، وما سنده من التاريخ القديم ؟ .

وكيف استبحتم نقل مثل هذه الدعوى الخيالية من أى سند في معرض التدليل ؟ .

وهل هذه إلا المصادرة المعروفة عند الجدليين ؟ ! .

على أن من الطريف أن محمد بك فكرى ادعى في تاريخ الجراكسة (حـ ١ ص ٦) « أن لفظ الجركس عنوان عام يشمل القبائل الأصلية القوقازية » ثم رتب على هذه الدعوى هـذه النتيجة : « فيكون الجركس يؤدى مؤدى القوقاس » . قبل أن يدلل عليها ، ثم نقل في (حـ ١ ص ١٢) عن « س لامار » أن الكرج ، والجركس ، واللزكى ، والحجب ، (فروع) أصل واحد ، وفى (حـ ١ ص ٢٢) قال : « دلت التدقيقات العلمية والتاريخية على أن الجركس والكرج ينتميان إلى جد مشترك »

فهل هذا الذى نقله في (حـ ١ ص ١٢ ، و حـ ١ ص ٢٢) يتفق مع ما ادعاه وقرره في (حـ ١ ص ٦) ؟ .

ويظهر أنكم شعرتم باضطراب موقف صاحب تاريخ الجراكسة ، فغيرتم ترتيبه ، فنقلتم ما كتبه في (حـ ١ ص ١٢ ، و حـ ١ ص ٢٢) أولاً ، ثم نقلتم ما كتبه في (حـ ١ ص ٦) أخيراً . ولكن هل هذا التقديم ، وذلك التأخير غيرا من أصل الموضوع شيئاً ؟ . والظاهر أنك شعرت بهذا الاضطراب في نصوص كتاب تاريخ الجراكسة وأنها لا تؤدى إلى ما قصدت فأوردت أسطورة — وإن شئت سمها أحجية — « أركس ، وآس ، وتركس ، وكسا » نقلا عن « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » للبدر العيني .

ولهذه الأسطورة عندى تاريخ قديم ، وحديث عجيب ، ما كنت أحب أن أعرض له لولا أنكم أوردتموها واثقين بها معتمدين عليها ، فرحين بها ، مغتبطين لها ، فقد حدثنى بها من عهد بعيد أستاذ جليل القدر ، كريم المنزلة ، أعزه وأحترمه وأحفظ له في نفسى تقـــديراً واحتراماً ، وإكباراً وإجلالا ، ولا حاجة الآن إلى ذكر اسمه الكريم ، وإن كنت أعتقد أنه هو الذى أخبركم بأسطورة البدر العيني أيضاً . فصارحته برأيي في قيمة هذه الرواية التي لم يعرفها أحد قبل عصر البدر العيني ، والتي لم تظهر إلا في ظل سلطان المماليك وفى مقرّ دولتهم ، ومركز عزهم في مصر ، وأذكر أنى قلت له يومئذ : إنها أشبه

بأسطورة أو أحجية من الأحاجي وضعت وضعاً لإرضاء السلطان وتزلفاً إلى أصحاب النفوذ . وإلا فكيف لم يطلع على هذه الرواية — إن كان لها أصل — أحد من المؤرخين قبل البدر العيني ، وخفيت عليهم جميعاً حتى أوحى بها إلى البدر العيني في الزمن الأخير في عهد دولة المماليك — وجلهم أو كلهم من الجراكسة المتشرين في القوقاز الشمالي الغربي — وسلطانهم المبسوط على مصر والشرق ؟[1]

كان هذا رأيي في رواية البدر العيني هذه من عدة أعوام ، وأن الأيام لم تزدني إلا إيماناً ، واستمساكاً بهذا الرأي . فهي رواية ولدت وترعرعت في ظل حكم المماليك الجراكسة من غير أن يكون لها سند من تاريخ ، أو مرجع تعتمد عليه .

ومن هذا القبيل ما شاع في كتب بعض المؤرخين الذين عاشوا في عهد المماليك واتصلوا بهم مثل ابن خلدون[2] من إطلاقهم اسم جبال الشركس على جبال القوقاز أو تسميتهم شعوب القوقاز جميعاً شراكسة فإنه اصطلاح طارئ حديث نشأ في ظل سلطان المماليك الشراكسة ، وانتشر في عهدهم .

وفي ظني أن هذه الرواية التي أوردها البدر العيني ، وهذا الاصطلاح على تعميم اسم الجركس على جميع القوقازيين ما هو إلا من قبيل التقرب إلى السلطان الجركسي والتزلف إليه ، لأن معظم هؤلاء المماليك — أو كلهم — كان من أتى بهم من سواحل البحر الأسود حيث ساكن قبائل الجراكسة . ومن هذا القبيل أيضاً تلك الدعوى العريضة التي كانت تزعم أن الجراكسة من قريش !. وألفت في يوم من الأيام لإثباتها الرسائل ؟ !

على أن البدر العيني — حسب رواية الأستاذ — بدأ كلامه بدءاً غير موفق إذ يقول : ومن الترك الجركس الخ . فهل يسلم الأستاذ مع البدر العيني أن الجركس من قبائل الترك ؟ ثم إنك — يا سيدي الأستاذ — بعد أن تفرغ من رواية أسطورة البدر العيني وشرحها وتوجيهها كما تشتهي قلت :

« واتبع البدر العيني المصطلح القديم ، وهو إطلاق الجركس على القبائل الأربع التي في جوانب جبل القوقاز » .

فأي مصطلح قديم هذا الذي تشير إليه ؟ ومن الذي ذكره وقال به قبل البدر العيني ؟ .

وأما تفسير كلمة « جركس » وادعاء أن أصلها الكريم جهاركس . ومعناها في لغة الفرس الرجال الأربعة فإنه لا يهمنا في الموضوع الذي نحن بصدده قليلا أو كثيراً ؛ لأن هذه الدعوى وهذا التخريج مهما قيل فيهما لا يزيدان ولا يرجحان على محاولة سابقة لشرحه كلمة « الجركس » فقد زعم زاعمون من قبل أن أصلها مركب من كلمتي « جرا » ، « كسا » وأن المرحوم « كسا » كان من أشراف قريش ، فجنى جناية وهرب إلى القوقاز ، وأقام بها ، وعلى هذا يكون أصل الجراكسة من قريش !.

هذا تعليق حاولت أن أجمله وجيزاً جهد الطاقة على ما دعوته نصوصاً تاريخية ، وما هي من التاريخ في شيء .

وبعد هذا أضع بين يديكم بعض الأسماء التي كانت معروفة في التاريخ القديم لسكان جبل القوقاز ، والتي أطلقها عليهم قدماء المؤرخين . وأبدأ ذلك بأن المؤرخين العرب الأقدمين كالمسعودي وغيره كانوا يسمون جبال القوقاز بلاد القبج أو جبال القبج لا جبال الجركس أو بلاد الجركس كما نص على ذلك المرحوم شيخ العروبة أحمد زكي باشا في قاموس الجغرافيا القديمة . هذا بالنسبة إلى منطقة القوقاز جملة .

وأما أسماء سكان البلاد تفصيلا ، فإن سكان الجهات الشرقية الشمالية من القوقاز — حيث ساكن الداغستان ، والحجب ، وشروان الآن — كانوا يسمون في بعض الكتب القديمة ألبانيين وكانت بلادهم تدعى ألبانيا . كما ذكر ذلك أيضاً المرحوم زكي باشا في كتابه السابق .

وإن اسم الحجب كان معروفاً قديماً ، وكان يطلق على الشعب الساكن في الشمال من بلاد الداغستان حيث ساكن الحجب إلى يومنا هذا .

كما أن اسم الأورا — وهم أسلاف اللوزكيين الحاليين من

---

(١) ولد البدر العيني في عينتاب سنة ٧٦٢ هـ وأقام في حلب ودمشق والقدس ومصر وكان من أخصاء الملك المؤيد ، وسمير الملك الأشرف وملازمه ، وتوفي بالقاهرة سنة ٨٥٥ هـ

(٢) ولد ابن خلدون سنة ٧٣٢ هـ ولقي السلطان الظاهر برقوق وتولى قضاء المالكية بالقاهرة ثم توفي بالقاهرة فجأة في سنة ٨٠٨ هـ .

الداغستانيين — كان معروفاً حول القرن الرابع الميلادى ، وقد أطلق على شعوب القوقاز الضاربين فى الجانب الشرقى للقوقاز أسماء مختلفة مثل الخزر ، قوميق ، ألان . وهذا الاسم الأخير يظهر لى أنه اسم اللازكيين القديم ، فهو يطلق فى الكتب القديمة على شعب مقيم فى مساكن اللزكيين الحاليين ، وأن ظن بعض الكتاب أنه اسم الأوسيت . ذلك أن الأوسيت معروفون باسم الأوسيت من قديم ، ويسكنون فى جهة تقع فى الشمال فى قلب منطقة الجبال على الشمال الغربى من مواقع اللزكيين .

هذا فى القسم الشرقى من القوقاز ، أما فى القسم الغربى منه فإن اسم الأديغة كان معروفاً من قديم ، وما زال يطلق على سكان الجزء الشمالى الغربى من القوقاز ، ويمكن اعتباره اسماً جامعاً لشتات قبائل الجركس المنتشرة فى تلك الجهة مثل : أبهاسو ، الأوبنج ، الشبوغ ، الأبزاخ ، القبرطاس ، الأبازة . مع ما بين قبيلة الأبازة وبين بقية قبائل الجركس من اختلاف فى اللغة يتعذر معه التفاهم بين هؤلاء وأولئك .

هـذه هى الأسماء التى كانت تطلق قديماً على سكان القوقاز الشمالى شرقيه وغربيه ، ثم ظهر فجأة اسم الجركس فى العصور المتأخرة ، وصار يطلق على بعض — وأحياناً على كل — القبائل الساكنة فى القوقاز الشمالى الغربى ، ثم انتشر هذا الاسم وصار يطلق — من غير تحقيق أو تدقيق — على جميع سكان القوقاز فى عصر المماليك كما فعل البدر العينى ، ومال إليه ابن خلدون ، ثم شاع هذا الاستعمال فى الشرق الأدنى فى فترة أخرى من التاريخ على أثر تلك الهجرة الواسعة النطاق التى قام بها الجركس إلى الممالك العثمانية على أثر تغلب الروس عليهم واحتلالهم لبلادهم

ولكن هذا كله لا يجعل هذا الإطلاق صحيحاً أو دقيقاً ، بل لا يعدو أن يكون ضرباً من ضروب التساهل من الكتاب أو عدم وقوف على حقيقة الحال من تنوع الشعوب فى تلك الأقطار الشاسعة ، واختلاف أصولها وتنوع أجناسها .

وإن الحديث عن شعوب القوقاز ، وكثرتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم حديث قديم طويل ، حتى كان المؤرخون القدماء من العرب يسمون القوقاز بلاد الشعوب والجبال ، وكان زاعمهم يزعم أن فى تلك البلاد نيفاً وسبعين شعباً لكل شعب لغته الخاصة به ! . وكذلك كان صنيع مؤرخى الرومان واليونان ، فسترابون يؤيد نظرية نيف وسبعين شعباً ، وهكذا بقيت هذه الأسطورة عالقة بالأذهان إلى عصور متأخرة جداً حتى جاء علم اللغات المعاصر ، وأعار هذه القضية أهمية خاصة ، وبحث مسألة تعدد لغات القوقازيين بحثاً علمياً دقيقاً ، واستطاع أن يهدم تلك النظريات ، والآراء الشائعة المبنية على معلومات غير دقيقة ، ففى أواخر القرن السابع عشر الميلادى ابتدأ العالمان الألمانيان : « تليدن أستاد » و « پالاس » الأبحاث العلمية عن أصول اللغات القوقازية ، واستطاعا إرجاعها إلى الأصول الآتية :

١ — اللغة التترية : وهى لغة الشعوب التركية الأصل .
٢ — « اللزكية : وهى لغة الداغستانيين .
٣ — « الكستينية : وهى لغة الججانيين .
٤ — « السركسيانية : وهى لغة الأديغة .
٥ — « الأوستينية : وهى لغة الأوسيت من الشعوب الإيرانية القديمة .
٦ — اللغة الكرتفليانية : وهى لغة الكرجيين .

وأصبح هذا التقسيم للغات القوقازيين أساس علم اللغات القوقازية فيما بعد استند عليه علماء القرن التاسع عشر واعتمدوه

وفى القرن العشرين أكد العالمان : « الفونس دير » و « نيقولامار » نتائج أبحاث أسلافهما فى تقسيم اللغات القوقازية

ويرى عالم آخر من علماء القرن العشرين أن اللغات القوقازية يجب أن تقسم إلى فصائل أربع وهى :

١ — اللغة اللزكية : وهى لغة الداغستانيين .
٢ — « الججانية .
٣ — « الكرتفليانية : وهى لغة الكرج .
٤ — « الإبهاسية : وهى لغة قبائل الجركس .

ويعد بعضهم لغة الداغستانيين ولغة الججان من فصيلة واحدة

وبناء على نتائج هذه الأبحاث العلمية يمكن تقسيم شعوب القوقاز الشمالى إلى قسمين أساسيين :

١ — سكان القسم الغربى من القوقاز وهم : الأبهاسو ، والأوبنج ، والشبسوغ ، الأبزاخ ، القبرطاس ، الأبازة . وهى جميعاً قبائل جركسية .

٢ — سكان القسم الشرقي من القوقاز الشمالي وهم : الداغستان والجحان . وإلى هذين القسمين الرئيسيين يمكن إرجاع بقية الشعوب والقبائل المنتشرة في القوقاز مثل : قره جاي ، بالكار ، قوميق ، نوغاس ، وهذه كلها من الفصيلة التركية ، وأوستين . وهي من الفصيلة الإيرانية ، والتي منها الفرس والكرد والأفغان .

هذا وقد سلك العلامة شمس الدين سامي بك في قاموس الأعلام مسلكا آخر في تقسيم شعوب القوقاز ، فهو يقسمهم أولا إلى سكان أصليين وأقوام طورانيين ، وأمم آرية ، ثم يقسم السكان الأصليين فيقول :

أما سكان القوقاز الأصليون ، فهم أقوام وأجناس وشعوب كثيرة ، ويمكن إرجاعهم إلى هذه الأقسام الرئيسية :

١ — الجركس الذين يسكنون حوض نهر قوبان وبالقرب من منابع نهر ترك الغربية في القسم الغربي الشمالي من القوقاز ، ويمكن أن يضم إليهم الأبازة[1] الساكنون في منحدرات سلسلة الجبال الغربية الجنوبية على القرب من سواحل البحر الأسود . والجحن[2] الساكنون إلى الشمال من بلاد الداغستان .

٢ — سكان بلاد الداغستان الأصليون ، وهم اللزكيون الساكنون في المناطق الشمالية الشرقية من جبال القوقاز ، وهؤلاء اللزكيون من سكان القوقاز الأصليين ، كانوا يسكنون هذه البقعة من أقدم العصور حتى إن « هيرودت » ذكرهم بهذا الاسم في تاريخه الذي كتب في حدود سنة ٤٥٠ قبل الميلاد .

ويحتمل أن يكون لهؤلاء اللزكيين صلات نسب وقرابة مع الكرج والجركس واللاز وغيرهم من أمم القوقاز الأصليين ، غير أن إثبات هذه الصلة بين هؤلاء الأقوام يفتقر إلى ما يثبته ، فهو مجرد احتمال لا دليل عليه .

٣ — سكان المنطقة الجنوبية من سلسلة الجبال أمثال الكرج والإيمرت والنكرلي . وإذا كان بعض المحققين من العلماء حاول عد الكرج من الأمم الطورانية أو الآرية إلا أن الأدلة التي ساقوها لإثبات ذلك لا تعد كافية .

على أن بعض الأبحاث التي أجريت حول لغة الكرج تدل على أن الكرج مثل بقية أمم القوقاز لا يمتون بصلة إلى الآريين أو الطورانيين أو الساميين ، بل يغلب على الظن أنهم بقايا أمم قديمة منقرضة كانت اجتازت هذه المناطق في أثناء هجراتها من آسيا إلى أوربا ، ومن أوربا إلى آسيا .

٤ — أمة الأوسيت ، وسوآنت الساكنون بالقرب من منابع نهر ترك .

هذه خلاصة وافية لما ذكره العلامة شمس الدين بك سامي في قاموس الأعلام عن شعوب القوقاز ، ومنه ومما قبله من بيانات وآراء للعلماء والمؤرخين الموثوق بآرائهم يتبين أن الداغستانيين والكرج ، والجحان ، والأوسيت ، والجركس أمم قائمة بذاتها لكل واحدة منها لغتها أو لغاتها الخاصة بها ، ولها كيانها المستقل . وعلى ذلك أرى أني حين قلت في الرسالة (العدد ٧٨٣ ص ٧٧٠) : إن اللاز يمتون بصلة النسب أو القرابة إلى الكرج ، وأن الكرج غير الجركس لم أكن مجانباً الحقيقة ، ولم أكن أحاول تسيير التاريخ حسب الهوى والغرض كما أردت أن تصور لي أمام قرائك ، بل كنت أقرر حقيقة علمية ثابتة لا سبيل إلى إنكارها ، أو التحايل على طمسها .

وبعد : فإني أشكرك — يا سيدي الأستاذ — جزيل الشكر على أن أتحت لي هذه الفرصة للتحدث عن شعوب القوقاز بشيء من الإفاضة والتفصيل . والسلام عليك ورحمة الله .

(دمشق) برهان الدين الداغستاني

(١) يلاحظ صاحب الأعلام أن بين لغة الأبازة وبين لغة بقية الجراكسة اختلافاً كبيراً يتعذر معه التفاهم بين هؤلاء وبين أولئك . ولذلك يتردد في عد الأبازة من الجركس .

(٢) هذا مخالف لما سبق من عد الجحن قسماً قائماً بذاته ، واعتبارهم مع الداغستانيين وينبغي ملاحظة عدم وجود أية صلة بين لغة الجحن وبين لغة الجركس .

٣١ . ٣٢

اطلب كتاب

دفاع عن البلاغة